الظل الكبير

قصة بقلم الآنسة سميرة عزام

كانت تساورها بعض شكوك حين وقفت امام مرج من الالوان يموج في خزانتها. ولكنها فضلت وهي تنتقي ثوباً تلبسه للمناسبة الا تفكر الا في حق الحياة المتساوية . وكان هذا آخر ما قرأته في احد كتب فلسفة الاجتماع .

لتكن صريحة مع نفسها على الاقل وتعترف . ألم تحس -- بحدس الانثى - أن الجلسة في بيت رجل قد لا تكون خالصة لوجه الادب والفلسفة؟ بلى ، أحست، وارتخت يدها عن حمالة الثوب، ثم ما لبثت ان تماسكت حين تذكرت شيئاً تحمله في نفسها، تعويذة لا تحب ان تفارقها. هي الثقة .

وامعنت في ايمانها بالتعويذة فاختارت اكثر اثوابها انوثة ، لبسته ومضت الى موعدها، تحملها التعويذة .

لماذا ذهبت ؟ تراه الح في دعوتها ؟ لا ، لم يلح اكثر من الحاحها نفسها في ان تخلق الظرف المناسب لتأتي المبادرة منه ، واستخدمت في هذا كل لباقتها، ونجحت ...

ولكن لماذا ؟ ألم يكن في طاقتها ان تحدثه في النادي ، ان تناقشه في آخر ما قرأت له دون أن توحي اليه بانها تشتاق ان تتحدث في مكان هادىء، في صومعة علم مثلاً ؟

بلى كان في طوقها . ولكنها ، اجل ، لنكن صريحة ، كانت تهدف الى اكثر من نقاش في كتاب ... كانت في رأسها خطوط مختلطة لمشروع كانت تعاني فيه فراغاً لا يملأه الا جبار ، جبار يبدو معه ماضيها شيئاً ممسوخاً ، شيئاً لا يجرؤ حتى ان يهز في نفسها مكامن الحنين ، او ان يقول انه منها .

كانت جولتها الاولى - على حلاوة البداية - صراعاً لم تصمد له فانسحبت بكبرياء من يوفر على نفسه هوان الهزيمة قبل ان تقول النهايات كلمتها . وعادت الى حدودها القديمة تمسح عن قلبها شيئاً فشيئاً بقايا المعركة لتحيا بنفسية بنت الستين .

وعاشت لتأكل وتشرب وتنام وتقرأ كتباً ليس بينها رواية حب . كانت تخاف اقل اثارة فلا تبصر بين السطور وجهاً من ماضيها . وما كانت انثى ، من قال انها تريد ؟ ما ارادت اكثر من ان تؤكد حريتها وتعيد لرأسها القدرة على التفكير وتبرهن (للآخر) بانه لم يكن في حياتها اكثر من صدفة، صدفة هزيلة، وانها اكبر من ان تربط غاياتها بالصدف . وحتى تلك الفترة التي كانت فيها زورقاً يخبط في متاهاته، ماتريد ان تحسبها من سنيها ، من ايامها .

غير انها - من جهة - ما كان يمكنها ان تستمر هكذا .

كانت تحب الحياة وتهيىء نفسها لرسالة فيها لا تعرف كيف تبدأ بها . وكان الفراغ يخيفها ويجسم لها فظاعة العدمية . وباتت تضيق بالركود ، وتشتاق شيئاً من التطرف في طبعها، ان تحب كثيراً وتكره كثيراً وتغضب كثيراً ، ولا يمكن لانسان فارغ ان يبلو شيئاً من هذا .

واشاع فيها الفراغ احساسات غريبة ، اذاقتها ملوحة الحسد ، وباتت لا تستريح - اذ تلفها موجة عصبية - اذا ما صادفت يدين معقودتين في طريق او رأسين متقاربين او سمعت اغنية عاطفية . وضايقها الفراغ، والح عليها وافزعها ان تتبخر ساعاتها وايامها وشهورها هباء لا يخلف معه ذكرى صغيرة .

هل ضاعت عليها الفرصة ؟ تراها ليست لرسالة ... اتظل نقطة حائرة في هذا الوجود ؟ من يأخذ بيدها لتبحث عن الف جواب وألف سؤال يعيش في رأسها؟ لم لا تعاود الكرة ؟؟

ليس تحقيق الشيء رهناً بان تريد او لا تريد ، ولكن عملية تكييف نفسي كانت جد ضرورية . كان لا بد - اولا - من الخروج من القوقعة بعقلها واحساسها في هذه المرة، عقلها الذي كان ناقماً حين اختارت ان تحب يوماً ... اختارت ؟ هراء ؟ ما هكذا يكون اختيار واحدة لا تقيم انساناً الا بعمق ما يحس ، بعمق ما يفكر ، ما يعيش . ولكنها لو تمسكت بمعادلة رياضية لما جعلت من عواطفها مستنقع طحالب ... وفي هذه المرة يجدر بها الا تكون عادية . ان تمسك قلبها باليمين وبمعادلة رياضية باليسار. إنها لا تريد ان تسخو فتمنح انساناً جد عادي حباً كبيراً. بل ولا حاجة بها لان تحب . يكفيها ان تملأ عقلها ونفسها اعجاباً ببطل .

بقي ان تعثر على بطل دوره في حياتها عظيم ، انسان متميز منفرد يرقى بها الى حيث تكون الحياة عبقرية وفناً لا يمارسها كل الناس ، والى حيث يعبر الانسان عن انسانيته باصالة كبيرة .

واطلت على الدنيا تسأل .. من اين ابدأ ؟

وكان الجواب - من صديقة مجربة - بطاقة عضوية لنوادٍ ثلاثة يلتقي فيها كل الوان الناس . كانت لا تكاد تتعرف على واحد حتى يقفز السؤال الذي يعيش فيها على شفتيها : أيكونه ؟

وتبدأ من بعيد تتأمله ، وتدرسه من كل ناحية، ثم تلفظه من تفكيرها بكلمة واحدة .. عادي . عادي ..

لم تكن مغرورة ، ابداً ، كان فيها تطلع عنيد الى انسان تحقق فيه ذاتها . ووافتها الفرصة ..

سمعته يوماً يحاضر ، وكان ساحراً مسيطراً وهو يستعين على فكره باشارات من يدين انيقتين ، وانتهى من المحاضرة وافسح المجال للمناقشة ، فقامت تحاسبه في نقطة لم تحتمل منه اكثر من نصف دقيقة ليفندها ، ولكنها لفتت نظره اليها اذ كانت المرأة الوحيدة التي اهتمت بأن تفهم ... ولما انفض الحاضرون وتحلقت قلة حول المحاضر تعلق على ما قال لمحا وابتسم لها ودعاها ليشرح لها وجهة نظره باسهاب اكثر . ومن يومها بدأ اعجابها يتحرك وبدأت تتطلع بكثير من الشوق الى تلك الحلقات التي تضمها واياه وصارت تقرأ كتبه بفهم جديد ، وتقرأ معها كل ما يمكن ان يجعلها جديرة بمجلساته، وكانت تحرص كلما فتحت فاها ان تكون معقولة في كل ما تقول.

وكانت تنفض الحلقات لتظل هي نهب مشاعر عدة : شعور بضآلة ما تعرف امام ما يعرف ، وشعور يوحي لها بأن كل لحظة مع هذا الانسان هي لحظات اكتسابية خصبة .

وبدأ يتبسط معها في الحديث ، وعرفت منه أنه ساق اعواماً اربعين بلا زوجة اذ لم يوفق بعد الى المخلوقة التي يمكن ان يعتبرها نصفاً لائقاً به ، وانه في فرنسا حيث صرف شطراً من حياته الدراسية عرف نسوة كثيرات كانت الواحدة توفق في شخصها بين الرفيقة والعاشقة بانسجام كبير ، اما النساء اللائي عرفهن هنا فقد اثبتن ايماناً بنفوسهن اهزل من ايمان الرجل الشرقي بهن ...

وكان اول ما سألت نفسها عنه حين قامت .. ترى ما الاثر الذي يمكن

ان تخلفه واحدة مثلها في واحد مثله. واضطربت حين لم توفق الى جواب محدد يطمئنها بأنها شيء له حسابه ، رغم توافر النية !

ومرة سألته عن بيته واين يعيش وكيف ؟ فقال : وحيداً في صومعة تضرب فيها فوضى عجيبة ويغطيها غبار كثير، ولكنه يحبها ويؤثرها ، فهي ذات طابع تحبه كل امرأة تزوره ..

اذن فهنالك نساء يزرنه ! ترى اي نوع من النساء؟ دمى ؟ بنات صدفة يأتين ويرحن ولا يتركن في روحه اكثر مما تترك سحبة اصبع على سطح ماء ؟ لا شك انه يعتبرها دمية فارغة ، وإلا لما شكا امامها من التفاهة الاجمالية لنساء مجتمعه . ليتها تزوره مرة لتريه وجهاً جديداً يجعله يؤمن بها ثم تمسك بعدها بطرف الخيط .

ايعقل ؟ لم لا ؟.. اما لها شخصية عجيبة ، ونواح متفردة في نفسها ؟ أما نجحت بعد في ان تجعله يحس بأنه في حضرة امرأة رأسمالها اكبر من عينين حلوتين ؟

ولم يطل بها الوقت حتى تعمدت ان تخلق الفرصة فدعاها ، وراحت وظلت تسأل نفسها طيلة الطريق ، كيف ستبدأ الحديث وكيف سيكون هو في بيته ... وكيف ... وعاودها احساس كالذي اجتاحها حين كانت لا تزال واقفة امام الخزانة تنتقي ثوباً ...

لا لم يكن سهلاً ان تتخلص من رسوبات عتيقة تشعرها بان المرأة والرجل هما المرأة والرجل ولو في صومعة علم ... الا انها طردت اوهامها بعنف وراحت تركز ذهنها في الموضوع الذي ستتحدث به ... أجل انها ليست عادية ... هي ذي على بابه ، باب بني في بناء ليس بالحديث الطراز.

وفتح لها ودخلت وادارت عينيها تحيط بالموجودات بنظرة واحدة . وكان الجو فوضوياً ، تماماً كما قال لها ... وسمعته يغمغم : ان خادمي لا يجرؤ على لمس الكتب او حتى تنظيف المكتبة خشية ان يعبث باوراقي ... اختاري المقعد الذي تشائين ، فالمقاعد هي الشيء الوحيد النظيف هنا .

وجلست ولم تدر ما تقول ، لو شاءت ان تفتح فاها . وراحت تنظر بتوتر الى سقف الغرفة الممعن في الارتفاع وفي نسخة غير اصلية من صورة (لنتنيان) معلقة على الجدار قبالتها، ظلت تحدق اليها طيلة دقائق ثلاث.

وانتظرت ان يبدأ هو الحديث لتنبسط طبيعتها، ويزايلها هذا التوتر... غير انه لم يفعل اذ كانت عيناه تتأملانها ويده تنحط بحركة متقصدة على كتفها .. وادنى رأسه من رأسها وهمس : « هل جئت حقاً لاحدثك في الفلسفة؟ كم انت طيبة ! لماذا تزعجين رأسك بالسفسطات التي احشو بها كتبي؟ أتسمحين ؟ »

ووضع راحة يده اليسرى خلف رأسها ، وأهوى على فمها يقبله ... وتخلصت منه في غير سهولة لتقوم الى الباب ففتحته بغضب وتهرول الى الطريق، تكاد لا تتميزه من دموع عينيها ..

ماذا يظن بها ؟ تافهة؟ عادية تأتيه الى قلب بيته ليقبل شفتيها ؟

قد تكون اضمرت في نفسها اشياء ، تهيئة الجو مثلاً ، إلا انها لم تشأ قط ان تبدأ بداية عادية توحي اليه بانها واحدة من كثيرات يستعمان رؤوسهن ولا يقسن ظلالهن الا بمقدار ما ينجحن في اثارة رجل. ألهذا دعاها الى بيته؟ أم ان الذنب ذنبها، وقد تقصدت ان تكون احلى وآنق واحسن اشراقاً مما تبدو في عادي ايامها ؟ ألا يحتمل ان تكون هي قد اوحت له باضطرابها وتوترها وسكوتها وطول تحديقها الى السقف، والصورة بأن مجيئها ليس اكثر من دعوة لنزوة ؟ ثم ما هي بالنسبة اليه ؟

هذا هو السؤال الذي تتهرب دائماً من سماع جوابه ... أولا تصغي الا اذا استعرضت قدراتها ودفعت بها لتطفو على سطح شعورها حتى تكون أحسن احساساً بها كلما لجأت الى النسبية ؟

هي ذي تسمع الجواب من شفتيه .. لو كان يحبها ، لو كان يحسب لها حساباً، لاهتم على الاقل بان يعمد لطريقة اكثر رومانتيكية ولم تأت فعلته سخيفة هكذا... هي في اعتباره دمية .. دمية كالآخريات .. وان تكن مجتهدة ! لقد اختصر معها الطريق ليختصر النهاية .. أكانت مغرورة حين أصرت على جبار ؟ قد يكون ! لقد علمها رد الفعل القديم ان ترى لنفسها ظلاً كبيراً ... حيث تضيع نسبة الاشياء : أهذه اذن نقطة الضعف ؟

واستراحت اذ وضعت اصبعها عليها فابتسمت ابتسامة وانية مسحت بعدها دموع عينيها ومضت – باصرار – تشق لها طريقاً في عتمة المساء !

سميرة عزام

صدر حديثاً

الكواكب الأحد عشر

للاستاذ محمد المجذوب

وهو الجزء الرابع من سلسلة
« قصص للشباب والطلاب »

الثمن ليرة — دار العلم للملايين

لمحبي الدراسات الأدبية والتعريب والمثقفين

خلجات القلوب

ترجمة صادقة لروائع الشعر

لامارتين ، هوغو ، فيني ، موسيه

بقلم

سعدي الحكيم

الثمن ١٢٥ ق . ل . توزيع المكتب التجاري